دون حصنه انظرى يانفس بأى بدن تقفين بين يدى الله وبأى لسان تجيبين وأعدى للسؤال جوابا وللجواب صوابا واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال وفى دار زوال لدار مقامة وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود واعلمى أنه ليس للدين عوض ولا للايمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار فانه يسار به وان لم يسر فاتعظى يانفس بهذه الموعظة واقبلى هذه النصيحة فان من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار فهذه طريق القوم فى معاتبة نفوسهم ومقصودهم منها التنبيه والاسترعاء ومن أهمل المعاتبة لم يكن لنفسه مراعيا ويوشك أن لا يكون الله عنه راضيا *

كتاب التفكر

﴿ فضيلة التفكر ﴾

اعلم انه قد أمر الله تعالي بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالي (الَّذينَ يَذْكُرُون اللهَ قِياماً وقُعُودًا وعلى جنوبِهم ويتفكَّرُونَ فى خَلقِ السّمواتِ والأرض رَبّنا ما خَلقْتَ هَذَا باطِلاً) وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما ان قوماً تفكروا فى الله عز وجل فقال النبى صلى الله عليه وسلم (تَفكَّرُوا فى خَلقِ اللهِ ولا تَتفكَّرُوا فى اللهِ) وروى فى السنة (تفكُّر ساعةٍ خيرٌ من عبادَةِ سَنَةٍ) وقال حاتم (من العبرة يزيد العلم ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكر يزيد الخوف)

وقال الشافعي رحمه الله تعالى : استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر . ثم أن ثمرة الفكر هي العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة واذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب واذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالفكر إذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها لأنه الذي ينقل من المكاره الي المحابّ ويهدي الى استثمار العلوم ونتاج المعارف والفوائد *

﴿ بيان مجارى الفكر ﴾

اعلم أن أنواع مجارى الفكر أربعة : الطاعات . والمعاصي . والصفات المهلكات . والصفات المنجيات *

(فأما المعاصي) فينبغي أن يفتش الانسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة ثم بدنه هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها . أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم . أو هو متعرض لها في نهاره فيستعدّ للاحتراز والتباعد عنها فينظر في اللسان ويقول انه متعرض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعنى الى غير ذلك من المكاره فيقرر أولا في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها فيحترز منها ويتفكر في سمعه أنه يصغي به الى الغيبة والكذب وفضول الكلام والى اللهو وأنه ينبغي أن يحترز عنه ويتفكر في بطنه أنه انما يعصي الله تعالى فيه بالأكل والشرب اما بكثرة الأكل من الحلال وذلك مكروه عند الله واما بأكل

الحرام والشبهة فيتفكر فى الاحتراز عن مداخله ويتفكر فى طريق الحلال وموارده ويقرر على نفسه ان العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام وان أكل الحلال هو أساس العبادات كلها فهكذا يتفكر فى أعضائه حتى يحفظها *

(وأما الطاعات) فينظر أولاً فى الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير . أو كيف يجبر نقصانها بالنوافل *

ثم يرجع الى عضو عضو فيتفكر فى الأفعال التى تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول أن العين خلقت للنظر فى ملكوت السموات والأرض عبرة ولتستعمل فى طاعة الله تعالى وتنظر فى كتاب الله وسنة رسوله وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله وأنا قادر على أن أنظر الى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه فلم لا أفعله وكذلك يقول فى سمعه انى قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم فمالى أعطله وقد أنعم الله على به وأودعنيه لأشكره فمالى أكفر نعمة الله فيه بتضييعه وتعطيله وكذلك يتفكر فى اللسان ويقول انى قادر على أن أتقرب الى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد الى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وادخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة وكل كلمة طيبة فانها صدقة وكذلك يتفكر فى ماله فيقول أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلانى فانى مستغن عنه ومهما احتجت اليه رزقنى الله تعالى مثله وان كنت محتاجا الآن فانا الى ثواب الايثار أحوج منى الى ذلك المال وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن

دوابه وأولاده فان كل ذلك أدواته وأسبابه ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ويتفكر فيما يرغبه فى البدار الى تلك الطاعات ويتفكر فى اخلاص النية فيها وقس على هذا سائر الطاعات *

(وأما الصفات المهلكة التي محلها القلب) فيعرفها مما تقدم وهى استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك ويتفقد من قلبه هذه الصفات ويتفكر فى طريق العلاج لها مما سلف ذكره *

(وأما المنجيات) فهى التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهد فى الدنيا والاخلاص والصدق فى الطاعات ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق اليه والخشوع والتواضع له مما تقدم ذكره فيتفكر كل يوم فى قلبه ما الذى يعوزه من هذه الصفات التى هى المقربة الى الله تعالى فاذا افتقر الى شئ منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلاّ علوم وأن العلوم لا يثمرها إلاّ أفكار فاذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم فليفتش ذنوبه أوّلا وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها فى قلبه ثم لينظر فى الوعيد والتشديد الذى ورد فى الشرع فيها وليحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم واذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر فى احسان الله اليه وأياديه عليه وفى إرساله جميل ستره عليه واذا أراد حال

المحبة والشوق فليتفكر فى جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر فى عجائب حكمته وبدائع صنعه واذا أراد حال الخوف فلينظر أولا فى ذنوبه الظاهرة والباطنة ثم لينظر فى الموت وسكراته ثم فيما بعده من سؤال القبر وحيّاته وعقاربه وديدانه ثم في هول النداء عند نفخة الصور ثم فى هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ثم فى المناقشة فى الحساب والمضايقة فى النقير والقطمير ثم ليحضر فى قلبه صورة جهنم وأهوالها وسلاسلها واغلالها وزقومها وصديدها وأنواع العذاب فيها وانهم كلما نضجت جلودهم بدّلوا جلودا غيرها وأنهم اذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وهلم جرّا الى جميع ما ورد فى القرآن من شرحها واذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فلينظر الى الجنة ونعيمها وأشجارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم فهكذا طريق الفكر الذى يطلب به العلوم التى تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة *

وأما ذكر مجامع تلك الأحوال فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكر فان القرآن جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين فيه مايورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال وفيه مايزجر عن سائر الصفات المذمومة فينبغى أن يقرأه العبد ويردّد الآية التى هو محتاج الى التفكر فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم فليتوقف فى التأمل فيها ولو ليلة واحدة فان تحت كل كلمة منها أسراراً لاتنحصر ولا يوقف عليها إلاّ بدقيق الفكر

عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة *

وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه قد أوتى جوامع الكلم وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره *

﴿ بيان كيفية التفكر فى خلق الله تعالى ﴾

اعلم أن كل ما فى الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه وكل ذرة من الذرات ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته واحصاء ذلك غير ممكن فلنذكر من الموجودات ما يدرك بحسّ البصر فانه الأقرب الى الافهام وذلك من الآيات التى حث على التفكر فيها القرآن الكريم *

﴿ آية الانسان ﴾

من آياته تعالى الانسان المخلوق من النطفة . وأقرب شئ اليك نفسك وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ماتنقضى الأعمار فى الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه . فيامن هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع فى معرفة غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر فى نفسك فى كتابه العزيز فقال ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أى شئ خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ﴾

وقال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾ وقال تعالى ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ ثم ذكر تعالى كيف جعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاما فقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ الآية . فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر في معناه فانظر الآن الى النطفة وهي قطرة من الماء قدرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب . وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة الى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذّاه حتى نما وكبر وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء ثم كيف جعلها مضغة ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية الى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم . ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة فدوّر الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ثم مد اليد والرجل وقسم رؤسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم

والمثانة والامعاء كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص . وفي آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات مالو ذهبنا الى وصفها لانقضى فيها الاعمار فانظر الآن الى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له ثم قدّرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير . وطويل ومستدير ومجوّف ومصمت . وعريض ودقيق . ولما كان الانسان محتاجا الى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه مفتقراً للتردد في حاجاته لم يجعل عظمه عظما واحداً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة . وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرف العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه . وفي الآخر حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها فصار الانسان ان أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذّر عليه ذلك ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركّبها فألّف بعضها الى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه فمنها مايخص القحف واللّحيَ الأعلى واللحى الأسفل والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادّة تصلح للقطع وهي الأنياب والأضراس والثنايا ثم جعل الرقبة مركبا للرأس ثم ركب الرقبة على الظهر وركب الظهر من أسفل الرقبة الى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام

الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز ثم عظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين وتعداد ذلك يطول فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة والقصد أن ينظر فى مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها وخالف بين أشكالها وخصّصها بعددها المخصوص لأنّه لو زاد عليها واحداً لكان وبالاً على الانسان يحتاج الى قلعه ولو نقص منها واحداً لكان نقصانا يحتاج الى جبره ثم أمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعابها أعجب من هذا كله وشرحه يطول وكل ذلك صنع الله فى قطرة ماء قذرة فترى من هذا صنعه فى قطرة ماء فما صنعه فى ملكوت السموات وكواكبها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هى أحكم خلقاً وأتقن صنعاً وأجمع للعجائب من بدن الانسان بل لانسبة لجميع مافى الأرض الى عجائب السموات ولذلك قال تعالى ﴿ أءنتم أشدُّ خَلقاً أم السَّماء بَناها رَفعَ سَمكَها فسَوّاها وأغطَشَ لَيلَها وأخرَجَ ضُحاهَا ﴾ فارجع الآن الى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت اليه ثانيا وتأمل أنه لو اجتمع الجن والانس على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا أو يخلقوا فيها عظما أو عرقا أو عصباً أو جلداً أو شعراً هل يقدرون على ذلك . بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالي ذلك لعجزوا عنه . فالعجب منك لو نظرت الي صورة تأنق النقاش في تصويرها لكثر تعجبك منه وأنت ترى النطفة القذرة

كانت معدومة فخلقها خالقها في الأصلاب والترائب ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها وقسم أجزائها المتشابهة الى أجزاء مختلفة فأحكم العظام فى أرجائها وحسّنَ أشكال أعضائها وزيّن ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة وخلق لها الظهر أساساً لبدنها والبطنَ حاويا لآلات غذائها والرأس جامعاً لحواسها ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئتها ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها . ثم أظهر فى مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر اليها ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مُرًّا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوّطها بصدفة الاذن لتجمع الصوت فترده الى صماخها ولتحس بدبيب الهوام اليها . وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة مايدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها اذا قصدها دابة فى حال النوم ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشمّ ليستدلّ باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته . وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا عما فى القلب وزيّن الفم بالأسنان ولتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدد رؤسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم وخلق الشفتين وحسنَ لونها وشكلها

لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام ثم خلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها ثم خلق المناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ . وزين الوجه باللحية والحاجبين وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل وزين العينين بالأهداب ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص فسخر المعدة لنضج الغذاء والكبد لاحالة الغذاء الى الدم والمثانة لقبول الماء حتى تخرجه في طريق الاحليل والعروق تخدم الكبد في ايصال الدم الى سائر أطراف البدن ثم خلق اليدين وطولها لتمتد الى المقاصد وعرض الكف وقسم الأصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ووضع الأربعة في جانب والابهام في جانب لتدور الابهام على الجميع . وبهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والاعطاء ثم خلق الأظفار على رؤسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى لاتقطع وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لاتتناولها الأنامل وليحك بها بدنه عند الحاجة ثم هدى اليد الى موضع الحك حتى تمتد اليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة الى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلاّ بعد تعب طويل ثم خلق هذا كله من

النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه ثم انظر مع كمال قدرته الى تمام رحمته فانه لما ضاق الرحم عن الصبيّ لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرّك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كانه عاقل بصير بما يحتاج اليه ثم لما خرج واحتاج الى الغذاء كيف هداه الى التقام الثدي ثم لما كان بدنه سخيفاً لايحتمل الاغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً . وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر ماينطبق عليهما فمُ الصبيّ ثم فتح في حلمة الثدي ثقبا ضيقاً جدًا حتى لايخرج اللبن منه إلاّ بعد المص تدريجاً فان الطفل لايطيق منه إلاّ القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدّة الجوع ثم انظر الى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الاسنان الى تمام الحولين لانه في الحولين لايتغذى إلاّ باللبن فيستغني عن السن واذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج الى طعام غليظ ويحتاج الطعام الى المضغ والطحن فأنبت له الاسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثات اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه فلولم يسلط الله الرّحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه ثم انظر كيف رزقه القدرة والتميز والعقل والهداية تدريجاً حتى بلغ وتكامل فصار مراهقاً . ثم شابا . ثم كهلا . ثم شيخاً اما كفورًا أو شكورًا مطيعاً أو

عاصياً مؤمناً أو كافراً تصديقاً لقوله تعالى ﴿ هل أتى على الإنسان حين من من الدّهرِ لم يكن شيئاً مذكوراً . إنا خلقنا الانسان من نطفةٍ أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرًا . إنا هديناه السبيل إمّا شاكرًا وإمّا كفورًا ﴾ فانظر الى اللطف والكرم ثم الى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الرّبانيّة والعجب كلّ العجب ممن يرى خطاً حسنا أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه فيصرف جميع همته الى التفكر فى النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطّهُ وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه فى نفسه ويقول : ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته . ثم ينظر الى هذه العجائب فى نفسه وفى غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوّره فلا يدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهدٍ على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك لاتعرف من نفسك إلاّ أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام وتشتهى فتجامع وتغضب فتقاتل والبهائم تشاركك في معرفة ذلك وانما خاصية الانسان التى حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر فى ملكوت السموات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقرّبين ويحشر فى زمرة النبيين والصدّيقين مقرّبا من حضرة ربّ العالمين وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لانسان رضى من الدنيا بشهوات البهائم فانه شر من البهائم بكثير إذ لاقدرة للبهيمة على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها فأولئك كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً . واذا

عرفت طريق الفكر فى نفسك فتفكر فى الأرض التى هى مقرّك ثم فى أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها الى ملكوت السموات *

﴿ آية الأرض ﴾

من آياته تعالى أن خلق الأرض فراشاً ومهاداً وسلك فيها سبلا فجاجا وجعلها ذلولا لتمشوا فى مناكبها وجعلها قارة لاتتحرّك وأرسى فيها الجبال وتادا لها تمنعها من أن تميد ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ أ جميع جوانبها وقد أكثر تعالى فى كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر فى عجائبها فظهرها مقرّ الأحياء وبطنها مرقد الاموات قال الله تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً ﴾ فانظر الى الارض وهى ميتة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات ثم انظر كيف أحكم جوانب الارض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون وأسال الانهار يجرى على وجهها وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقاً صافيا زلالا وجعل به كل شئ حىّ فأخرج به فنون الاشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لاتحصى مختلفة الاشكال والالوان والطعوم والصفات والروائح يفضّلُ بعضها على بعض فى الأُكُل تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة فان قلت أن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها فمتى كان فى النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ومتى كان فى حبة واحدة سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ثم انظر الى أرض

البوادى وفتش ظاهرها وباطنها فتراها ترابا متشابها فاذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ألوانا مختلفة ونباتا متشابها وغير متشابه لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر فانظر الى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة فهذا النبات يغذى وهذا يقوّى وهذا يحيي وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا يفرح وهذا ينوّم فلم تنبت من الارض ورقة ولا تبنة إلاّ وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح فى تربيته الى عمل مخصوص ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الايام في وصف ذلك فيكفيك من كل نبذةٌ يسيرة تدل على طريق الفكر فهذه عجائب النبات *

﴿ آية أصناف الحيوانات ﴾

اعلم أن من آياته تعالى أصناف الحيوانات وانقسامها الى ما يطير والى مايمشي وانقسام مايمشى الى ما يمشى على رجلين وعلى أربع وعلى عشر وعلى مائة كما يشاهد فى بعض الحشرات ثم انقسامها في المنافع والصور والاشكال والاخلاق والطباع فانظر الى طيور الجو والى وحوش البر والى البهائم الاهلية ترى فيها من العجائب مالا تشك معه فى عظمة خالقها وقدرة مقدرها وحكمة مصورها وكيف يمكن أن يستقصى ذلك بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت وهى من صغار الحيوانات في بنائها بيتها وفي

جمعها غذائها وفى ألفها لزوجها وفي إدخارها لنفسها وفى حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها الى حاجاتها لم تقدر على ذلك . وكل يشهد بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم . فالبصير يرى في هـذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الالباب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات *

وهذا الباب أيضا لا حصر له فان الحيوانات وأشكالها وطباعها غير محصورة وانما سقط تعجب القلوب منها لانسها بكثرة المشاهدة . نعم اذا رأى حيوانا ولو دودا ـ تجدد تعجبه . وقال : سبحان الله ما أعجبه والانسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر الى الانعام التى ألفها ونظر الى أشكالها وصورها ثم الى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التى جعلها الله لباسا لخلقه واكنانا لهم فى ظعنهم واقامتهم وآنية لاشربتهم وأوعية لاغذيتهم وصوانا لاقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب و بعضها حاملة للاثقال قاطعة للبوادى والمفازات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فانه ما خلقها الا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها فسبحان مَنْ الأمور مكشوفة فى علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استعانة بوزير أومشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده فما للخلق إلا الاذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والاقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته فمن ذا الذى يحصى ثناء عليه ؟ بل هو كما أثنى

على نفسه وانما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته

﴿ آية البحار ﴾

من آياته تعالى البحار العميقة المكتنفة لاقطار الارض وفيها من عجائب الحيوان والجواهر اضعاف ما تشاهده على وجه الارض كما أن سعته أضعاف سعة الارض انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره فى صدفه تحت الماء وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه ثم انظر الى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الاموال وغيرهم وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم *

وأعجب من ذلك كله الماء ما هو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الأجزاء كانه شئ واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع به حياة كل ما على وجه الارض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد الى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الارض وملك الدنيا فى تحصيلها لو ملك ذلك ثم لو شربها ومنع من اخراجها لبذل جميع خزائن الارض وملك الدنيا فى اخراجها *

فالعجب من الآدمى كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله فى شربة ماء اذا احتاج الى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها فتأمل فى عجائب المياه والانهار والآبار والبحار ففيها

متسع للفكر ومجال وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته *

﴿ آية الهواء وعجائب الجوّ ﴾

ومن آياته تعالى الهواء اللطيف . فان شاء جعله نشراً بين يدى رحمته كما قال سبحانه ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ فيصل بحركته روح الهواء الى الحيوانات والنباتات فتستعد للنماء. وان شاء جعله عذابا على العصاة من خليقته كما قال تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ *

ثم انظر الى عجائب الجوّ وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق فهى عجائب مابين السماء والأرض وقد أشار القرآن الى جملة ذلك فى قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴾ وهذا هو الذى بينهما وأشار الى تفصيله فى مواضع شتى حيث قال تعالى ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ وحيث تعرض للرعد والبرق والسحاب والمطر . فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جوّ صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء وهو مع رخاوته حامل الماء الثقيل وممسك له فى جوّ السماء الى أن يأذن الله فى إرسال الماء وتقطيع القطرات حتى يصيب الأرض قطرة قطرة فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة لعجزوا وكل ذلك من فضل الجبار القادر لا إله إلاّ هو *

﴿ آية السموات ﴾

ومن آياته تعالى ملكوت السموات وما فيها من الكواكب وقد عظم الله تعالى أمر السموات والنجوم في كتابه فما من سورة إلاّ وتشتمل على تفخيمها في مواضع وكم من قسم في القرآن بها كقوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ وقوله تعالى ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ وقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأوّلون والآخرون وما أقسم الله بها فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها اليه فقال تعالى ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ وأثنى على المتفكرين فيه فقال ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فارفع رأسك الى السماء وانظر فيها وفي كواكبها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤبها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ومن غير تغيُّر في سيرها بل تجري جميعاً في منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى طيّ السجل للكتاب . وتدبر كثرة كواكبها واختلاف ألوانها وكيفية أشكالها ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدة سنة ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة وانظر إلى ايلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وادخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص وانظر كيف أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة

من فوقها وعجائب السموات لا مطمع في إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها وانما هذا تنبيه على طريق الفكر وعلى الجملة فما من كوكب من الكواكب إلاّ ولله تعالى فيه حكم كثيرة . وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك أنك تدخل بيت غنيّ فتراه مزوقا بالصبغ مموّها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وأنت أبدا تنظر الى هذا البيت العظيم والى أرضه والى سقفه والى هوائه والى عجائب أصنافه وغرائب حيواناته ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك اليه ليس لك هم إلاّ شهوتك اشتغلت بأنواع الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض . فاستكثر من معرفة عجيب صنع الله تعالى لتكون معرفتك بجلاله وعظمته أتم . والله الملهم *

كتاب ذكر الموت وما بعده

﴿ فضل ذكر الموت ﴾

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ﴿ أكثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هاذِمِ اللّذّاتِ ﴾ وعنه صلوات الله عليه ﴿ أكثِرُوا مِنْ ذِكْرِ المَوْتِ فإنّهُ يُمَحِّصُ الذّنُوبَ وَيُزَهِّدُ فى الدّنيا ﴾ وعنه عليه الصلاة والسلام ﴿ كَفَى بِالمَوْتِ وَاعِظاً ﴾ وعنه ﴿ أكْيَسُ النّاسِ أكثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلموتِ وَأشَدُّهُمُ استِعْدَادًا لهُ أولئِكَ هُمُ الأكياسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدّنيا وَكَرَامَةِ الآخِرَةِ ﴾

وعن عبد الله بن مطرّف قال : ان هذا الموت قد نغص على أهل